تقرير

في ذكراها الـ 33 ... لبنان يتذكر حربه الأهلية ولا ينسى المفقودين

بيروت - «الراي»

... «ولم يعودوا»... هكذا عنونت «امم للأبحاث والتوثيق»، معرض صور لمفقودين خلال سنوات الحرب الأهلية وحتى ما بعدها، ضمن مشروع «ما العمل؟ لبنان وذاكرته حمالة الحروب».

«ولم يعودوا»... ربما أراد لقمان سليم والقيمون على المشروع أن يبقوا على جرعة أمل، فـ «لم» تحمل في طياتها أمل العودة. ربما كما قال لنا لقمان سليم، «لأن هذه البلاد محترفة في الإحباط، يوجد نوع من يأس مرح يجعلنا ننشط ونتحرك». هذا اليأس المرح كما وصفه سليم، هو على الأغلب السبب في أن العنوان كان «لم» وليس «لن»، لتنحصر الأمور في معرفة مصير هؤلاء المفقودين على الأقل. كان لابد من أمل، لا لشيء إلا لان الأحياء الذين احترفوا الانتظار قد تشغر مقاعدهم إذا غاب الوهم بالأمل.

من أكثر من 17 ألفاً بين مفقود ومخطوف، استطاعت «أمم» أن تجمع صوراً لـ 500 شخص فقط، بالتعاون مع لجنة أهالي المخطوفين، ولجنة دعم المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية ولجنة دعم المعتقلين والمنفيين اللبنانيين (سوليد). هذا المشروع لن ينتهي بانتهاء ذكرى الحرب أو بانتهاء المعرض بل سيمتد حتى نهاية العام، مع العلم أنه قابل ليستمر أكثر حتى التوصل إلى نتيجة ما. لكن لقمان سليم كان واضحاً، بعيداً عن مرحه اليائس، حيث قال: «لا أتوقع شيئاً. المشروع يبدأ تحت خط الأمل وطموحه أن يأمل، المردودية السريعة في هذا المجال هي أخر الهموم».

المشروع يحتمل العديد من التأويلات لكنه بكل تأكيد بحاجة ماسة إلى الصبر، وخصوصاً أن جزءاً من طموح القيمين على المشروع «هو ملاحقة الأحزاب اللبنانية المشتركة بالحرب لتقديم أرشيفها»، كما قالت مونيكا بورغمان التي يحمل المشروع توقيعها. وتضيف مونيكا: «ليس المطلوب أن نحاكم أحداً ولكن على أحد أن يعطينا طرف خيط، قد يساعد في أن نجد الطرف الذي يمكنه أن يعطي المعلومات، كي نعرف مصير هؤلاء المفقودين وكيف فقدوا».

هذا المشروع ما كان ليتم بالشكل المطلوب لولا تدخل «أياد بيضاء» ساهمت في تمويل المشروع، من المكتب الألماني لنشر ثقافة التسامح والمركز الدولي للعدالة الانتقالية بالإضافة إلى مؤسسة «هايرش بول» والسفارة السويسرية. وهنا لا بد أن نتساءل لماذا لم تقم الدولة اللبنانية بتمويل هكذا مشروع؟ هل ان على اللبنانين أو بلغة أوضح على اللجان الناشطة من أهالي المعتقلين والمخطوفين، أن ينتظروا «أمم» لتقوم بالمشروع وتبحث عن دعم أوروبي له، حتى تصبح القضية قضية رأي عام حقيقة؟ هل كان كافياً أن يفتتح المعرض برعاية معالي وزير الثقافة وأن يلقي ممثله كلمة يمدح فيها «أمم» ويشكر الممولين؟ ربما اتقان الأمل أو إتقان انتظاره الذي تتميز به «أمم» لم يعد حاضرا لدى غالبية اللبنانيين وحتى لدى دولتهم وسط كل ما ينتاب لبنان اليوم.

ما العمل؟

افتتح المشروع بحضور شخصيات عدة، منها القائمة باعمال السفارة الأميركية ميشيل سيسون والسفيرة البريطانية فرانسيس غاي والسفير الألماني هنز يورغ هابر الذي القى كلمة في الافتتاح.

«لعلنا اليوم في العام 2008 وتحت الحاح ما يعبر بنا من أزمة، ونعبر به، أدعى ما نكون إلى ما يتجاوز التذكر على سبيل اللياقة والتجامل وزيارة الأموات وتفقد المفقودين والتحالف بأغلظ الإيمان، بأن ما كان من إساءات متبادلة بلغت حد القتل الجماعي وجرائم الحرب لم تعد كونها هنات وسهوات عابرة، ولعلنا اليوم أدعى ما نكون إلى تجاوز هذا القبيل من التذكر وأدعى ما نكون إلى تلمس صيغ أشجع من التذكر، تسمي الأشياء بأسمائها، أو أقله بالأحرف الأولى من أسمائها، وتقول صراحة إن لا طيّ لصفحة إلا بعد قراءتها من ألفها إلى يائها، ولا طيّ لملف إلا بعد فحص عناصره وتمحيصها ولربما أكثر قليلاً».

هكذا افتتحت «أمم» مشروعها لخص لقمان سليم في كلمته هدف المشروع بصيغة سلسة لا شيء أكثر من اعتراف واعتذار يقدمه جنرالات الحرب الميليشاوية والذين للأسف معظمهم مازال على رأس الطبقة السياسية التي تتحكم بمصير البلد. مالعمل؟ عنوان صغير يحاول أن يجد صيغة للتوصل إلى ماسبق ذكره من أهداف ولكن لا أظن أن أحداً يملك إجابة عن هذا السؤال ولا حتى لقمان سليم نفسه وهذا ما دعا «أمم» إلى إقامة ورش عمل يقوم بها باحثون واختصاصيون تستمر حتى نهاية العام الحالي، علها تصل إلى إجابة.

«أمم» استعانت بالدكتور اليكس بورين، نائب رئيس لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب افريقيا وأحد مؤسسي المركز الدولي للعدالة الانتقالية، والذي كان له الدور البارز في تحقيق المصالحة في جنوب أفريقيا. «ان الجروح تبقى مفتوحة طالما أنها لم تواجه الماضي» هذا ما قاله الدكتور بورين وأضاف في كلمته». وختم بورين بالقول: «قد يقال ان لبنان هو بلد الضحايا وان الجميع عانوا من الماضي بطرق مختلفة، لكني آمل أن يصبح لبنان بلداً من الناجين من الماضي ليطالبوا بحقهم في المصير الخاص وتحقيق الوحدة». ولكن ما غفل عنه الدكتور بورين هو أن الحرب لم تصبح ذاكرة بعد فاللبنانيون الذين يعيشون وسط حرب أهلية من نوع بديل إذا جاز لنا التعبير لم يعودوا إلى صور الحرب الماضية على اعتبارها ذاكرة بل على اعتبار أن ما يحصل امتداد من نوع آخر لما حدث في 1975.

ذاكرة بلا كلالة

وربما للذاكرة في لبنان وجه آخر وجه يجعل الأمور كلها في إطار الذاكرة حتى تلك الأشياء التي لم تحدث بعد. تلك الذاكرة التي يوليها لقمان سليم أهمية خاصة في حديثه: «برأيي أن ثمة جزءاً في حياة الجماعات البشرية يتم بذاكرة تلك الجماعات وليس في مكان آخر، على المستوى الفردي يمكن ألا يظهر هذا الأمر حيث يظهر عمل الذاكرة في ما يسمى بالجرائم العاطفية لكن على مستوى الشعوب تتخذ الجرائم العاطفية شكل الحرب الأهلية». ويرى لقمان سليم أن المهم هو مواجهة ماحدث ومراجعة حسابات تلك المرحلة كي نستطيع بالفعل أن نقول ان صفحة الحرب طويت: «لا يمكن لحياة سياسية أن تتم وفق قواعد معينة طالما أن ثمة انتقامات، والوضع يصبح أكثر صعوبة ضمن ثقافة مثل ثقافتنا حيث ان مفرادات الحداثة السياسية لن تتحقق وستكون قابلة للنكوص على شكل انشقاقات ذات طابع قبلي أو عشائري أو ديني».

و«ذاكرة بلا كلالة» هو عنوان الموقع الإلكتروني لمشروع «ما العمل؟». وربما أهم ماتقدمه «أمم» للتوثيق والأبحاث من خلال هذا المشروع هو أرشفة وتوثيق كل البيانات والمعلومات التي يمكن أن تتوافر عن موضوع الحرب بشكل عام وعن موضوع المفقودين في شكل خاص.

صور وحكايات

نتأمل في صور المفقودين. وجوههم الباهتة في الصور لا تخبرنا بشيء وجوههم القديمة لا تقوم إلا برسم خيالات عما كان يمكن أن يفعلوا لو أنهم موجودون بيننا، 500 صورة ونستعيد في ذهننا كل أخبار المجازر والقتل على الهوية، هنا فتى لم يتجاوز العشرين من العمر وفي زاوية أخرى صور لرجال تجاوزوا منتصف العمر ربما لا ذنب لديهم سوى أن دينهم ذكر على الهوية من جهة أو أنهم رفضوا الوصاية أيام كان النظام السوري يقبل بكل شيء في لبنان ما عدا حرية التعبير والعيش بديموقراطية. مونيكا بورغمان تتحدث عن رحلتها مع هذه الصور: «كان من الصعب أن نقوم بمثل هذا الأمر، 500 وجه وكل واحد منهم يحفزك على رسم سيناريوات محتملة لتكتب سيرته، فتصبح وكأنك تعيش مع 500 قصة والأسئلة المطروحة هنا راعبة، مالذي حدث لهم وهل ماتوا وأين هم إن لم يموتوا».

بدا الانفعال على وجه مونيكا حينما بدأت بالحديث عن المفقودين ومصيرهم وهي تخبرنا أن العديد منهم فقدوا وهم صغار لم يتجاوزوا مرحلة الشباب: «العمل على هذه الوجوه التي قد يبقى مصيرها مجهولاً، كان صعباً جداً، وهذا ما شكل صدمة لي، ربما جعلني هذا الأمر آخذ المشروع على محمل عاطفي أكثر في داخلي، ولكنني استطعت اتمامه».

هكذا هي الحال اليوم، مع واحدة من أهم القضايا العالقة من زمن الحرب المتجددة، قضية المفقودين، أن تتعامل مع قصص افتراضية وأن تعيش أخباراً لم تحصل ولن تروى، ربما نفهم الآن معنى عبارة اليأس المرح. ولكن ألا يحق للبنانين أن يخافوا على مصير هذا اليأس وسط الأزمات المتتابعة اليوم؟ ربما جل ما يحاول اللبناني أن يفعله اليوم هو ألا يتخلص من يأسه ولكن على الأقل يحاول أن يبقي عليه مرحاً.